تعليم الطب بالمغرب والعالم الإسلامي

عبد العزيز بنعبد الله

إن هدفنا من هذا البحث المقتضب رغم طوله، هو محاولة رسم صورة واضحة عن تعليم الطب ومناهجه بالمغرب وبقية أقطار العالم الإسلامي، من خلال تطور مختلف مراكز الدراسة والبحث والتدريس من معاهد ومستشفيات وعيادات فردية وجماعية، عامة أو تخصّصية، وأخيرا دكاكين العلاج التي أمست آخر ملجأ لتطبيقات فقدت الكثير من مقوماتها العلمية الصّحيحة. وستعزز هذه النظرة بتحليل عنصرين أساسيين هما أصناف الأمراض والعاهات التي عرفها هذا الجزء من العالم، وكذلك أنواع الاختصاصات التي واجهت هذه الأمراض مع ما تسلحت به من أسباب الوقاية ووسائل العلاج.

ولعل من آكد ما وجب التعرّف عليه قبل هذا وذاك، الملابسات والظروف التي كيفت البيئة الإسلامية والتي جعلت منها مسرحا لاختيارات وتوجيهات كانت أسيسة للمفاهيم الطبية ومميزاتها وتطوراتها.

وإذا كان الطب قد عرف بالعالم الإسلامي عامّة وبالمغرب نوعا من القداسة جعلت منه طرفا من العلوم الإسلامية، فإن أول مجال ازدهر فيه تدريس علم الطب هو المسجد الذي يرمز إليه في بلادنا بجامع القرويين وباقي جوامع المملكة. وقد كان الإمام الشافعي يقول : «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب» وكان يتلهف على ما ضيّع المسلمون من الطبّ ويقول : «لقد ضيّعوا ثُلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى».

نعم إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وسلوك اجتماعي وبين الطبّ كعلم وقوام حيوي في المجتمع، ليبرز لنا هذا اللون من المعرفة الإنسانية كبنية جوهرية تكيّف هيكلة المجتمع وتسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة هي الأخرى الى علماء الدين. بل إن المنهج الرئيسي الذي طبع تعاليم الإسلام هو المبدأ الذي يعطي الأسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان، فلهذا نجد الكثير ممّن تخصّص في العلوم الدينية قد عزّزها بالمشاركة في الطبّ وما يتصل به من نفسانيات وصيدلانيات، وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليَحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة المعرفة، الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح. فمن صميم الفكر الإسلامي ما انتظم في القرآن والحديث من مبادىء حول نظام التغذية والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات (الكحوليات) والمخدرات، مع العمل الدؤوب المتوازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة ومنطلق أمراض عصبية دلت الاحصاءات على أنها تمثل في العصر الحديث في مناطق متطورة نحو تسعة أعشار الإصابات البشرية.

ونحن نلمس فعالية وجدوى هذه التعاليم في نطاق منهج استقرائي يحلل تصور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويترعرع ثم يهرم وينهار، مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث ممّا يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها. ونحن نتجاوز الآن، نظرا لضيق المجال، التحليل العلمي الدقيق لمحتويات القرآن والحديث في هذا الصّدد مُركِّزين أكثر على كشوف ومعطيات تحدّدت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام شرقا وغربا. وإذا كان الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوروبا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار (Claude BERNARD) الذي وضع أسس منهجية الطبّ التجريبي في العصور الحديثة، فإن المجتمع الإسلامي قد عرف كما سنرى منذ القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، أي قبل ذلك بألف عام منهجا تجريبيا في مختلف العلوم وخاصة في الطبّ.

وقد شكلت المساجد وفي طليعتها جوامع الزيتونة والأزهر والقرويين معاهد أولى للطبّ انطلقت في تدريسها ممّا يسمى بالطبّ النبوي الذي بلغت أحاديثه

المتعلقة بالأدوية والأدواء (أي الأمراض) ثلاثمائة، تبلورت في ستة مؤلفات نقل بعضها (بيروه) الى الفرنسية وحلل بعضها الآخر (ريسك) في رسائله الطبية و(كانبي) في (حياة محمد) حيث رسم فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام[1].

غير أن محتوى هذه المصنّفات لم يكن — في نظري — سوى مجموعة تجارب قبلية استقاها الرسول عليه السلام — حسب زوجته عائشة — من الوفود التي كانت ترد عليه. أما الأحاديث النبوية الصحيحة التي لها مفهوم طبي فإنها لا تزيد على العشرة معظمها وارد في الصحاح كحديث العسل والكلب[2] والذباب[3]، وهو ما حلّله مؤتمر الأطباء المنعقد عام 1930 بلندن فأيد وجهة نظر (الرسول) وكذلك حديث فعالية العدوي الوارد في صحيح مسلم : «لا يورد ممرض على مصح» وحديث الحجر الصحي : «إذا كان الطاعون في أرض فلا تخرجوا منها ولا تدخلوها» وحديث (الطبراني) الذي حل منذ أزيد من أربعة عشر قرنا مشكلا استطاع الفكر الطبّي الحديث اليوم أن يتعرف عليه بعد تجارب موصولة حول مراحل تطور حياة الجنين التي تبدأ بإشعاع روح خلوية (âme cellulaire)، نصّ الحديث المذكور على بروزها منذ الأسبوع الأول من علوق النطفة، ولذلك حظر الإسلام كل نوع من أنواع الإجهاض منذ اللحظة الأولى لهذا العلوق (Conception).

إلا أن بيوت العلماء كانت أيضا مسرحا لدروس خصوصية في شتى مجالات المعرفة كمواد التفسير والحديث والطبّ وغير ذلك، وقد انبثقت هذه الدروس المزدوجة عن مزيد اهتمام بالمبادىء العامة للإسلام الذي اهتم بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح، كما دعا للإيمان بالله تعوذا من الخوف والقلق واليأس، مع الابتعاد

---

(1) لوكلير — «تاريخ طبّ العرب» (مجلدان) — طبعة بيروت — أعادت طبعه وزارة الأوقاف المغربية (ج 2 ص 315).

(2) وهو قوله عليه السلام : «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب».

(3) وهو قوله عليه السلام : «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغسله فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء».

عن الخمور والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب القلق. وقد أبرز الأستاذ (إيرنيست أدولف) الطبيب الجراح في جامعة (سان جوهن st. John) الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبّي الحقيقي.

وفي الوقت الذي فسح الإسلام المجال للدراسات والأبحاث والتجارب فازدهر الطب والتداوي عند العرب — كما يقول ولتر في «مختصر التاريخ» —، كان الأوروبيون يجهلون هذا العلم ويحتقرون أربابه إذ أن الكنيسة حظرته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين والتعاويذ والرقى التي كان رجال الدين يبيعونها وكان الأوروبيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين[4].

ومعلوم أن علماء ألمانيا هم الذين استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم نظريات سليمة حول تاريخ الطبّ العربي، ومنهم (ويستنفلد) الذي كتب ثلاثمائة ترجمة لأطباء عرب، و(فنريش) الذي درس الكتب اليونانية المعرّبة أو المنقولة إلى السريانية والآرامية الفارسية (لوكلير، ج 1/ص 4). وقد راجع (لوكلير) في باريس ما يوجد فيها من كتب طبية عربية يتراوح عددها بين مائتين وثلاثمائة (ج 1. ص 9). وإذا رجعنا الى المصادر التي استقى منها العرب نلاحظ أن دراسة الطب في الاسكندرية كانت على أساس مجموعة من ستة عشر كتابا لجالينوس «Gallienus»، قد استعرضت في ثلاثة مصنَّفات هي فهرست ابن النديم، و «كتاب الحكماء» للقفطي، و «طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيْبعة. وقد عرّب (حنين) معظم كتب جالينوس الا أن الفكر الإسلامي بدأ يبتكر حيث قرر المجتمع الطبي الأولية لجالينوس وابن سينا عام 1340. وفي عام 1500 حكموا بالسّبق لابن سينا في خمس محاضرات من أصل عشر، ولجالينوس في أربع ولأبقراط (Hippocrate) في واحدة.

نعم في ظل الإسلام الذي شجع العلم وبجل العلماء ظهر أبوبكر محمد بن زكرياء الرازي، الذي هو في الحقيقة أبو الطبّ العربي — وأفضل أن تقول الطب الاسلامي نظرا لكون الكثير من الأطباء المسلمين غير عرب — والذي ألّف ما

(4) «كازيط المستشفيات» عدد مارس 1932 — محاضرة الأستاذ فوسك.

يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها الى اللاتينية. وقد وصف الجدري والحصبة، كما أنه أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية والأنابيب التي يمرّ منها الصديد والقيح والإفرازات السامّة. وكان طبيبا أخصائيا ألّف كتاب «أمراض الاطفال» و«تجارب المارستان» فكان منزله عيادة تخصصية تابع فيها تلامذته دروسهم وزاولوا تجاربهم.

وقد شعر المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية، كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية حيث أكد (برتيلو) في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار. وقد سبق العرب الأوروبيين إلى تجهيز المخابر بآلات وفي طليعتها الأواني الزجاجية المحتوية على السوائل الملونة والتي كانت من أول ابتكارات العرب وكانت «مدرسة النظامية» في العراق و«مدرسة نيسابور» وراء النهر، و«دار الحكمة» بالقاهرة الفاطمية، وكليات قرطبة مراكز بارزة خاصة في الآونة التي ظهر فيها (ابن سينا) Avicenne. فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد (القانون) أرجوزته المعروفة عند الأوروبيين ب (كانتيكوم) وكان كلاهما أسيسة للتجارب المارستانية والعيادية والجامعية في بحبوحة القرن الرابع الهجري حيث كان جامع الأزهر وجامع القرويين وربما جامع الزيتونة مسارح لدراسة الطبّ كحصة في مناهج العلوم الإسلامية. وكانت هذه الجوامع تعتمد على كتاب (القانون) لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب علي بن عباس وكلها تشكل أعظم عناصر الموسوعة الطبية التي أنتجها العرب (لوكلير ج 1/ص 470)، بل إن هذه الكتب ظلت ستة قرون — إلى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي — مرجعا أساسيا لكليات الطبّ الأوروبية كما ورد ذلك في قرار جامعي مؤرخ بعام 1617م يدل على أن كتب الرازي وابن سينا كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان (التي أسست عام 1425م)[5].

(5) «أعراف المسلمين وعاداتهم» — ڤوتيي ص 245 / «وهذه الجامعة توجد في بلجيكا وقد أسست عام 1426 م وألغيت عام 1791 ثم أعيدت عام 1835 كجامعة كاتوليكية.

ولعل من مظاهر فعالية تعليم الطب في الحقل الجامعي منذ القرن الثالث الهجري قيام المقتدر العباسي بتنظيم وتدريس الطب وصناعته حرصا على مصلحة الجمهور، حيث ولي الخلافة عام 225 هـ ففرض إجراء امتحان بلغ عدد المتخرجين منه في جانبي بغداد (عام 319 هـ) 860 رجلا سوى من استغني عن امتحانه لمهارته (القفطي ص 130)، أما الصيادلة فقد أجرى لهم امتحان أيام المعتصم عام 221 هـ.

وقد برزت الدراسات الطبية بالأندلس في نفس الفترة، حيث كان عدد الكليات أربعا وعشرين في أرباض قرطبة عاصمة الأمويين، وفي هذا العصر عرف الطبيب محمد بن علي (المتوفى عام 391 هـ) الذي عالج موضوعا طريفا في رسالته (فطرة الطابع في سعة الطبائع) temperaments (نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بالرباط عدد 1486 د).

كما ظهر أعظم طبيب عربي هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وقد وصفه أحد الجراحين الغربيين بأنه أعظم طبيب في الجراحة، اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في العصور الوسطى. وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن، وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل، وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية. ولذلك اعتبره (لوكلير) (ج 1 ص 334) أكبر نموذج لعلم الجراحة في المدرسة العربية، لاسيما وأن بحوثه وتجاربه الجامعية والعيادية قد عززت بوسائل إيضاحية(6).

وقد أفاد الشرق من تجارب الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع حيث دخل محمد ابن عبدون القرطبي بلاد الكنانة والبصرة، فدبر (أدار) مارستان مصر وعاد إلى الأندلس عام 360 هـ («نفح الطيب» ج 1/ص 444)، على أن الشرق عرف (مختصرا في الطب) لعبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي المتوفي عام 238 هـ

(6) توجد في المكتبة العامة بالرباط في مخطوط عدد 1428 د، حيث ورد في المقالة الثامنة من كتاب التصريف مقالة تحتوي على 28 صورة في خصوص حدائد الكي والمكاوي التي تختلف حسب العضو المريض من الرأس الى الأنف الى الرحم والمثانة. الخ.

(توجد نسخة منه في المكتبة العامة بالرباط). وأول من أدخل الطب الى المغرب إسحاق بن عمران وأحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار (ت 395 هـ) صاحب «زاد المسافر» (يوجد الجزء الأول منه في المكتبة العامة بالرباط) وكذلك (مختصر «كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة» لابن الجزار) أيضا مرتبا على الحروف، وصاحب الاختصار مجهول (ولعله اسحاق بن عمران).

وقد شهدت المغارب الثلاثة في هذه الفترة جملة من الأطباء المهرة، حيث روى القفطي في «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» ص 75، أن المعز الفاطمي كان مرفقا الى الكنانة بعدد من هؤلاء الحكماء، على أن حركة الترجمة في أفريقية تأسلت منذ ظهر (قسطنطين) التونسي الصقلي مؤسس مدرسة سالرنة (Salerne) بإيطاليا وهي أول مدرسة من نوعها بأوروبا فكان مبعث أنوار الطب الحديث في أوروبا. وقد ولد قسطنطين حوالي 400 هـ بتونس وترجم الى اللاتينية أهم كتب الطب العربي (كزاد المسافر وكتب الرازي)، وألف نحوا من أربعة وعشرين كتابا منها («قانون الطب» في اثنى عشر مجلدا و«فياتيكوم» Viaticum) في الطب العام (سبعة أجزاء) وقد أقرأ يونس العربي الفاسي بمدرسة سالرنة هذه (اللسان العربي ج 5). الا أننا لا نعرف بالضبط متى ازدهر الطب في المغرب الأقصى وإن كان لوكلير يؤكد (ج 1 ص 334) ابتداء ازدهاره خلال القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري)، ملاحظا أن المغرب أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية (ج 1 ص 407). وقد أشير الى وجود مدرسة طبية بفاس في هذا العصر — حسب («شهيرات المغرب» للكانوني العبدي) وإن كنا لم نجد ما يؤكد ذلك. والواقع أن الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب إلا في القرن الخامس حيث امتزج العطاء الأندلسي والمغربي في وثبة مشتركة برعاية المرابطين ثم الموحدين. ويمكن القول مع لوكلير (ج 2 ص 72) بأن الفكر لم يسبق له أن تحرّر كما وقع في هذا العصر، يشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة Avempace وابن رشد في حاضرة مراكش الحمراء، وكذلك نبوغ بني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون. وقد لوحظ أن أطباء الأندلس الخاضعة لسلطان مراكش التقوا، كما يقول لوكلير (ج 2 ص 24)، حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب، ولذلك فاقت مراكش العاصمة الإسماعيلية فاساً في هذا المجال خلال هذه الفترة.

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس، وكان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية، ولعله أول طبيب أفرد في منزله مختبرا لأبحاثه وتجاربه كأول مدرسة لعدد من التلاميذ المخصوصين. وكانت له آراء شاذة في الطب تدل على أصالته، وقد تمخضت تجاربه عند تأليف كتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان Colin عام 1911 بباريس، وهو مجموعة ملاحظات سجلها خاصة لتلميذه وولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة بمراكش مع الأدوية المناسبة، وكانت له «مجربات» أخرى جمعت في مراكش بأمر الخليفة علي بن يوسف عام 526 هـ (يوجد مخطوط منها في الأسكوريال رقم 844)، وقد ترجم (جان دوكابو) «التذكرة» من العبرانية الى اللاتينية (نسخة في كلية الطب بباريس)، ثم توالت التراجم عام 1280م والمطبوعات عشر مرات بين 1490 و1554م[7].

وقد أصبحت مدرسة ابن زهر مختبرا علميا رصينا أجريت فيها تجارب مختلفة شملت تخصصات متعددة تبلورت في رسائل مثل (رسالة في أمراض الكلي) لأبي العلاء نفسه (توجد ترجمتها باللاتينية نشرت عام 1497)، ومخطوط حول (الخواص) بمكتبة باريس منه استقى ابن البيطار (خواص لحوم الحيوانات) وكذلك مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي حول (تركيب الأدوية) أو المستحضرات الصيدلية.

واستمرت تجارب بني زهر أيام المرابطين في عيادات متعددة الاختصاصات polycliniques في شخص أبي مروان عبد الملك بن زهر Avenzoar الذي ألف كتاب «الاقتصاد» عام 515 هـ (مخطوط منه بباريس عدد 2959)، والاسكوريال (مخطوطة محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية)، ورسالة لم تصلنا في (تحليل العدوى والفرق بين الجذام والبهق) وغير ذلك من دقيق المفاهيم الطبية ممّا جعل ابن زهر هذا طبيبا أخصائيا فاق ابن سينا لا يعدله في الشرق سوى الرازي.

---

(7) توجد الآن نسخة بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى عام 1531 وهي تحتوي على «كليات» ابن رشد (Colliget).

ومما يدل على أن هذه العيادة الخاصة ببني زهر أصبحت آنذاك مرجعا لأطباء آخرين أن أبا مروان لم يصنف كتابه «التيسير» إلا بطلب من ابن رشد الذي عاشره بمراكش، والذي كان يفضله على غيره من أطباء عصره. وقد تميز أبو الوليد ابن رشد الحفيد هذا بكتابه «الكليات Colliget» الذي ترجم الى اللاتينية، وطلب من ابن زهر أن يؤلف كتابه في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب شامل في صناعة الطب. ومعلوم أن ابن رشد عزّز هذه العيادة التخصصية المراكشية بكتب أصيلة منها تلخيصه لكتاب «العلل والأمراض والحميات والأدوية المفردة وحياة البرء» وكذلك رسالة التفحص عن طول العمر وقصره (كتاب التيسير) حول الطب التطبيقي، وهو وصف عيادي لأمراض منها péricardite وجرح المنصفى mediastinal مع وصف الأعراض الشخصية وهو غير معروف باللغة العربية، نشر عدة مرات باللاتينية (راجع Arabian contributions to medicine, by Haddad S.T. (Annales médicales Hist. T. 3 . p. 60 - 72, 1942) وابن رشد أول من وصف الدورة الدموية الكبرى قبل ويليام هارفي (Williem Harvy)، واقترح في شرحه لأرجوزة ابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة بمصر كمراكز شتوية.

وقد شمل التخصص في هذه العيادة بعض النساء أمثال أم عمرو بنت أبي مروان ابن زهر طبيبة (دار المنصور الموحدي) وكانت تمارس الطب وتداوي نساء البلاط بمراكش ويستفتيها الموحدون في طب النساء والأطفال. وكانت بنت أم عمرو أيضا عالمة بالطب والتوليد. وقد برزت في سبتة بعد ذلك عائشة ابنة محمد بن عبد الجبار محتسب المدينة فكانت طبيبة صيدلانية خبيرة في شؤون المياه وعلاماتها.

ولعل هذا النموذج العيادي جدير بأن نقف برهة لتحليل منهجه العلمي ووصف مختلف الاختصاصات التي مارسها، وذلك من خلال كتاب «التيسير» الذي ظل نبراسا لأبناء ابن زهر وتلامذته من بعده كولده أبي بكر الطبيب الشاعر الذي كان لغويا محدثا يحفظ صحيح الإمام البخاري عن ظهر قلب، كما يستظهر ديوان ذي الرمة وهو ثلث أشعار العرب («المطرب» لابن خفاجة). ولعل عطاء هذه الأسرة قد استمر الى القرن التاسع الهجري، حيث توفى آخر أطباء بني زهر وهو أبو العلاء الثاني محمد ابن أبي محمد بن زهر (المتوفى عام 825 هـ 1422 م)،

إذا صدقنا ما ورد في رسالة منسوبة لابن زهر المغربي عنوانها (المجربات في خواص المعدن والنبات والحيوانات) (نسخة بدار الكتب المصرية ـــ 135 طب).

وكانت هذه المنهجية أسلوبا اختاره في البحث والتجربة نحو الثلاثين من كبار الأخصائيين نذكر منهم على الخصوص سبعة أخصائيين هم :

1) الطبيب الكحال أبو جعفر بن هارون الترجالي (والكحال معناه طبيب العيون).

2) أبو الحسن بن قاسم الاشبيلي صاحب (خزانة الأشربة والمعاجين).

3) أبو جعفر بن الغزال الصيدلي الماهر (كان المنصور يعتمده في تركيب الأدوية).

4) أبو بكر بن القاضي الحسن الزهري تلميذ كل من ابن زهر وابن رشد، كان يطب الناس بدون أجرة ويكتب وصفات على الرقاع ordonnance للمرضى.

5) إبراهيم بن صواف الحجري الذي تصدى للعلاج في طنجة ثم فاس (والمتوفى عام 506 هـ) وقد توفي في نفس السنة (ميمون الصحراوي) الذي اختص في مجال آخر هو (الطب الروحي) (راجع قصيدة اليوسي).

6) علي بن عتيق الخزرجي نزيل فاس وقد أقرأ الطب في بجاية وتوفي عام 598 م (الجذوة/ص 306).

7) موسى بن ميمون (Maîmonide) تلميذ ابن رشد الذي انتقل الى فاس لدراسة الطب ونزل بدار المجانة طوال خمس سنوات وهو صاحب (قوانين الجزء العملي من صناعة الطب) نسخة بمدريد عدد 5240 (16 ورقة) (الرسالة في الأعراض) symptomatologie. فكتاب «التيسير» قد نهج فيه ابن زهر أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى أحسن النتائج، فهو طبيب التجربة والتحقيق وليس من صناع اليد، يقوم شخصيا بتحضير الأدوية كأشهر صيدلي محاطاً بمن يسميهم (أعوان الطبيب)، وهم ممرضون مختصون بالأعمال اليدوية، محتفظا لنفسه بتقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية قيمةً وتركيباً فكشف بذلك عن أدواء جديدة لم تدرس قبله، حيث اهتم بالأمراض

الرئوية فشرح القصبة في مرض الذبحة واختص في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع كما استخدم الحقن المغذية وكشف عن طفيلية الجرب وسماها صوَّابة. وقد امتازت منهجيته باعتبار الطبيعة قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري وتكفي في الغالب لعلاج الأدواء، وعزز ذلك بالاستهلاك في مريضه ونسيان نفسه عند العلاج. فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها مستلهما ذكرياته وتجاربه ومنطقه عازفاً عن كل طريقة تقليدية، فاستطاع بذلك وبفضل مساعديه في العيادة المدرسية النموذجية تطوير ثلاث شعب حاول توحيدها وهي : الصيدلة والجراحة والطب العام («تاريخ المغرب» — كودار، ص 452). وقد تحدث في كتابه هذا عن يمين (ابقراط) الذي كان يطالب به جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم الزام تلاميذهم به.

ولعل المغرب لم يكن يستعمل قسما آخر عُرف في الشرق ذكره عبد الرحمن الشيزري في كتابه المخطوط «نهاية الرتبة» يقوم المحتسب فيه بتحليف الأطباء (أن لا يعطوا دواء مرا ولا يركبوا له سمّاً ولا يذكروا للنساء دواء إسقاط الأجنة ولا للرجال دواء يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار «سر المهنة» والتوفر على جميع الآلات.)

وقد ظهر في ربوع مراكش ثم باقي المغرب اتجاه تجريبي طريف وفَّق بين المعطيات المنطقية التجريبية والتقاليد القديمة لنظريه الاخلاط Théorie humorale ومبدأ القوى الطبيعية الشافية ونظرية الأيام البحرانية (crise) ليستمد الى التحقيق العلمي بإجراء تجارب للتأكد من صحة بعض الفروض. وقد احتل كتاب «التيسير» بذلك مرتبة لا تقل عن مرتبة «الحاوي» للرازي و«القانون» لابن سينا حيث تحدث ابن زهر عن أمراض جديدة في تحليلات دقيقة وصف فيها ما سماه :

غشاء الأورام الغليظ	La dure - mère
التشخيص التفريقي	Diagnostic différentiel
أورام الغشاء الرقيق	La pie - mère
أورام الدماغ	Encéphalites

الجليدية	Cristallin
الزجاجية	Humeur Vitrée
البيضية	Humeur acqueuse
السلع	Humeurs fibro - Kystiques
الغلظ الخارج عن الطبيعة	Xanthome
أمراض مآقي العين	Pathologie des voies lacrymales
قروح الملتحم والقرنية	Conjonctivite - Kératite
الإنتشار	cataracte (المسمى اليوم الساد)

وقد تعرف ابن زهر على أدواء ناتجة عن اختلال الدماغ فوجد أعراضها من تشنج Spasme (في نطاق علم الأعراض العامة symptomologie) وصرع épilepsie وشرسام بارد (délire chronique)، كما وصف السل ومضاعفاته وأمراض القلب والكبد والطحال والمعدة ومراقي البطن وأمراض الصدر والمثانة والكلية وحصاتها وأمراض القضيب والأرحام والفروج وقشور العظام والتهابها ostéite والحميات والأمراض الوبائية وشق قصب الرئة trachéotomie واستخدم المسمار المعدي sonde gastrique لوصف الحمية وتحديد الأغذية الصحية ومعالجة ما يعرف اليوم بوذمة الرئة الحادة oédéme aigu du poumon Dap والتهاب التامور Péricardite. ولم ينس أي عضو ولا جهة من الجسم الا كشف عن خباياها من خلال تجارب واعية جعلت منه طبيبا متعدد التخصصات أنشأ ما يشبه معهد الاخصاءات اليوم (Institut des spécialités) منذ قرابة ألف عام. وأعطى في علاجاته الأسبقية الكاملة للمداواة بالأعشاب النباتية التي كانت أسيسة صيدلية مستعملا مصطلحات دقيقة لا تقل في عمق مفهومها عن المصطلح الحديث وقد تعززت الدراسة الطبية في مختلف العيادات بمعاجم ومسارد نذكر منها :

1) «تقريب من إلتذكرة» وغيرها لإبراهيم بن أبي سعيد المغربي (المتوفى عام 546 هـ/1151 م) (مكتبة الأحمدية 3/5649).

2) «المنهج في التداوي من صنوف الأمراض والتكاوي» له أيضا، وهو مختصر في مفردات الأدوية، ختم بقائمة للأدوية التي لها أسماء ثلاثة مرتبة معجميا.

3) «شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون (المتوفى عام 601 هـ/204 م) بالقاهرة 1940.

4) «تفسير الالفاظ الطبية اللغوية» الواقعة في كتاب المنصوري مرتبة على حروف المعجم لابن الخشاء توجد نسختان في المكتبة العامة بالرباط (عدد 956 د) ومكتبة القرويين وهو مطبوع. (8)

5) «المعجم الطبي» لإبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (المكتبة الحسنية بالرباط رقم 8544).

6) تعريب كتب طبية للحسن بن أحمد المسفيوي (المتوفى عام 1032 هـ وهو كاتب المنصور السعدي وتلميذ أبي القاسم الغساني شاعر عالم طبيب مؤرخ.

7) «ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس» لسيدي عبد السلام العلمي طبع بفاس عام 1318 وقد علق عليه (رينو) فلاحظ أن المؤلف يعطينا مفردات بربرية للمصطلحات الطبية العربية.

أما الصيدلة التي تشكل جزأ لا يتجزأ من الطب فقد صنفت فيها عشرات المؤلفات خاصة في الأدوية المفردة والأعشاب والعقاقير (توجد قائمة بها في كتابنا حول «تاريخ الطب والأطباء») وهو مطبوع عام 1960 وكذلك «المعلمة الطبية» (مخطوط).

وكان للمغرب وللأندلس ضِلع في تحقيق ازدهار علوم الحكمة والطب في الشرق في القرن السابع الهجري فظهر أمثال (السويدي صاحب التذكرة (9) (المتوفي 691 هـ) وابن أبي أصيبعة، والقفطي علي بن يوسف المصري (المتوفى عام 646 هـ) وابن النفيس (المتوفي عام 687 هـ) وهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى أي الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشره المعهد المصري

(8) كتاب المنصوري هذا هو «مفيد العلوم ومبيد الهموم» نشره عام 1941 معهد الدروس العليا المغربية.

(9) اختصر «التذكرة» عبد الوهاب الشعراني المتوفي عام 973 هـ (توجد نسخة في المكتبة العامة بالرباط).

بمدريد، ج 26، عام 1934، بقلم ماكس ماير هوف، ص 33)، وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ) والذي امتاز في وصف أعشاب مصر.

على أن مصنفات رجالات المغرب أصبحت أساساً دراسياً حتى للعلماء النباتيين أمثال ابن البيطار (المتوفي عام 646 هـ) وأستاذه أبي العباس النبطي فاستطاع الأندلس أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي (لوكلير، ج 2، ص 72). إلا أن القرن السابع الذي وصف بأنه عصر ازدهار في الشرق ما لبث أن أعقبه عصر انهيار واكب انحسار موجة العلم والحكمة بالمغرب بعد (وقعة العقاب) التي انهزم فيها الموحدون (عام 609 هـ) وكانت السبب في هلاك الأندلس «البيان» لابن عذارى، ج 4، ص 240).

المارستانات والمستشفيات

إن أول مارستان عرف في الشرق هو مارستان الشام بناه الوليد بن عبد الملك الأموي الذي تولى الخلافة عام 86 هـ وهو أول من بنى المارستان في الإسلام «الخطط والآثار» للمقريزي، ج 2، ص 405 ــ طبعة بولاق)، وأول من اتخذ المارستان بمصر أحمد بن طولون.

وبلغ كراء المقعد (أي السرير) فيه كل يوم اثني عشر درهما («صبح الأعشى» ج 3، ص 337) وكان في المارستان العصري أربعة وعشرون من الأطباء منهم الكحّالون والطبائعيون والجراحون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه. وكانت هذه المستشفيات معززة بمكتبات كالتي عرفها العهد الفاطمي بمصر حيث بلغ عددها أربعين خزانة في قصر الخلافة أشهرها الخزائن التي جمعت مائة ألف مجلد منها 6500 في الطب والفلك. وكان المصريون يختلفون إليها لاستعارتها أو مطالعتها.

وأول شبكة من المستشفيات الأندلسية هي ما أشار إليه العلامة الأمريكي (فكتور روينصن) من وجود أربعمائة مستشفى في مدينة طليطلة وحدها وهو رقم أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة، لاسيما وأن لوكلير (ج 1 ص 571). أكد أنه لم تصله معلومات في شأن هذه المستشفيات الا ما كان من مستشفى (الجزيرة الخضراء) الذي أسسه الموحدون في آخر أيامهم وجعلوا على رأسه الطبيب أحمد بن ابراهيم الداني.

والواقع أن المنصور الموحدي سمح بفتح دكاكين للعلاج وعيادات متعددة الاختصاص بجانب مستشفى عظيم هو (مستشفى دار الفرج) شرقي الجامع الكبير بمراكش، ولم تكن كلمة مارستان معروفة آنذاك ولعلها تسربت من تركيا عن طريق السعديين. وقد وصف عبد الواحد المراكشي («المعجب» ص 177) مارستان مراكش وزخارفه ونقوشه وغراسته والمياه المحيطة به وفرشه النفيسة وأنواع الملبوسات المخصصة للمرضى مع وفير الأدوية والأطباء والممرضين ممّا حدا المؤرخ ميبي Millet الى القول في كتابه «الموحدون» Les Almohades بأن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوروبا المسيحية (وسماها maladredries) فحسب، بل تخجل منه مستشفيات باريس حتى اليوم، أي تاريخ صدور الكتاب المذكور وهو عام 1923 وقد أشار ابن الخطيب في «انفاضة الجراب» عام 761 هـ ـــ 1359 م الى هذا المستشفى الذي ربما اندثر إبان الاحتلال البرتغالي لبعض مدن الجنوب وكان مديّره (أي مديره) آنذاك هو أبو الضياء منير بن أحمد الجزيري بينما ولي أمانته في عهد الناصر والمستنصر ابراهيم الداني وولده أحمد وأخوه.

وقد تعددت المارستانات المرينية حتى لم تكد تخلو مدينة من مارستان (الذخيرة السنية 100). فقد بنى أبو يوسف المريني مارستانات وفّر لها عددا من الأطباء. ثم بنى أبو عنان المريني بسلا مدرسة للطب أحيلت بعد توسيعها الى مارستان كان من أبرز أطبائه ابن غياث السلاوي وأبو الفضل العجلاني(10).

وقد عرف هذا العهد مارستانات أخرى كمارستان شالة («وصف افريقيا» للحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي ـــ طبعة باريس، ج 2، ص 24)، ومارستان مكناس ومارستان الرباط أمام الجامع الأعظم، وأهمها (مارستان سيدي فرج) قرب سوق العطارين بفاس، وقد تولى نظارته عام 754 هـ الطبيب محمد بن قاسم المالقي، وخصص أحد أجنحته للأمراض العصبية حيث جربت الموسيقى في العلاج وكان ذلك قبل أن يشيع في أوروبا استعمال نوع من الرقص هو

---

(10) ولعله هو محمد بن قاسم العجلاني صاحب «تحفة الأريب عند من لا يحضره طبيب» توجد نسخة في الخزانة الحسنية عدد 1044، وهو يحتوي على حقائق طبية أهملها الناس.

Rock-and-Roll في خصوص معالجة مرض عضوي هو أزمة مغص كلوي : ألم يحصل على مستوى الكلية. والغريب أن مارستان سبتة الذي بناه المرينيون كان يحتوي على ثمانمائة سرير («وصف وتاريخ المغرب» كودار، ج 1، ص 62).

ولا نستغرب هذا إذا ما رجعنا الى كتاب «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنين الآثار» (المطبعة الملكية بالرباط لمحمد بن قاسم الأنصاري) ــ الذي ألفه 825 هـ / 1421 م أي بعد احتلالها بسبع سنوات ــ (ومن ذلك 62 خزانة و47 رباط صيد و360 فندقا و4000 مطمورة و103 طاحونة و44 مرمى ومحلات للسباق و30 مرسى و999 مصيدة للحوت).

وقد توالى إنشاء المارستانات في العهد السعدي حيث أنشأ السلطان الغالب بالله عام 970 هـ / 1562 م مارستانا بمراكش قرب جامع المواسين ووقف عليه أموالا للنفقة على القومة من أطباء وصيادلة وممرضين مع مختلف اللوازم. وقد أسس السعديون للأسارى المسيحيين ــ حسب رواية السفير الانجليزي ادمون هوكان ــ مستشفى قرب أحد الجوامع بمراكش (الاستقصا، ج 3، ص 18).

ولعل هذه المارستانات قد بدأت تفقد من أصالتها وأهميتها حيث أصبحت مخصصة للعلاج إن لم نقل مجرد إيواء المجانين كما هو الحال بالنسبة لمارستان المجانين بفاس، حيث تولى الحسن الوزان خريج جامعة القرويين خطة العدالة فيه مدة أربعة أعوام. وقد احتفظ باسم مارستان رغم تقلص أهميته. وقد أقيمت مارستانات أخرى في العهد العلوي قامت بدور محدود ومن جملتها المارستان الذي بناه المولى عبد الرحمن بسلا آخر عام 1247 هـ / 1831 م قرب ضريح سيدي أحمد بن عاشر استحال هو أيضا الى مستشفى للمجانين.

وكان لأطباء المغرب المارستانيين شفوف في الشرق منذ القرن الرابع الهجري حدا المسؤولين المشارقة الى اختيارهم للاشراف على مارستاناتهم، منهم :

ــ محمد بن عبدون القرطبي الذي دبر مارستان مصر (توفي عام 360 هـ).

ــ علي بن يقظان السبتي الذي توجه الى مصر عام 544 هـ ثم الى اليمن والعراق (القفطي، ص 160).

ــ يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي المعروف بابن سمعون الفاسي كان طبيب ميمون أمير حلب والملك الظاهر (القفطي، ص 206).

ــ عبيد أبو الحكم عبد الله المظفر المعروف بالمغربي (المتوفى عام 549 هـ/1155 م) كان طبيبا مهندسا شاعراً موسيقارا، مهر في ضرب العود ودخل مصر ودمشق والعراق وترأس مارستان السلطان السلجوقي وكان له دكان علاج.

ــ محمد الغساني الجياني المغربي كان طبيبا بمدرسة النظامية ببغداد عام 601 هـ بعد مروره بالقاهرة ودمشق، وكان يلقب بحكيم الزمان.

ــ علي بن أحمد الحرالي ولد بمراكش وتوفي بدمشق عام 637 كان فريدا من نوعه، أحكم تدريس الطب بمنهج أصيل فكان يلقن قوانين في الطب نزل في التفسير منزلة أصول الفقه في الأحكام.

ــ علي بن هلال الحضرمي السبتي (المتوفي عام 678) كان له دكان علاج جعل من أسفله مدرسة للطب ثم انتقل الى المسجد عند ما كثر تلاميذه («الذيل والتكملة» ق 5 ص 419)، وهذا يعطينا صورة عن لجوء بعض أساتذة الطب الى المساجد عندما تضيق عيادتهم أو مصحاتهم عن ذلك.

ــ محمد القويع، درس بمارستان دمشق في عهد أبي الحسن المريني (نزل بتونس، توفي عام 738 هـ).

ــ غالب الشقوري نزيل فاس (المتوفي عام 741 هـ) قرأ الطب بمارستان القاهرة وزاول العلاج في دكان بفاس.

ــ أحمد بن حاتم الفاسي ولد بفاس عام 851 هـ ونزل مصر والشام ومكة، يعرف في مصر بحاتم.

ــ عمر بن على السلعي المتوفى عام 576 م كان له دكان علاج بدمشق، كتب ملاحظات على كتب ابن سينا وهو أبو جعفر المغربي (لوكلير، ج 2، ص 200).

ولعل دكاكين العلاج والمصحات قد استمر دورها عندما تقلصت المستشفيات. وقد كان للمريخ الحكيم دكان نموذجي بمراكش كان يجلس اليه كل

من ابن البنّا تلميذه وابن الشاطر، كما عرفت فاس دكان إبراهيم بن أبي الفضل بن صواف الحجري (المتوفي عام 1112)، وفي مكناس دكان العيادة للطب والصيدلة لصاحبه إبراهيم بن علي المراكشي الذي بلغ درجة أكابر الحكماء من أطباء البلاط العلوي.

تدريس الطب في جامع القرويين ومساجد المغرب

أسس جامع القرويين عام 245 هـ (أي قبل جامع الأزهر بقرن تقريبا) ولكن نشاطه الجامعي لم يبدأ الا منذ القرن الخامس الهجري وقد اعتبرت فاس من طرف (باديالبيليش، المعروف بعلي باي العباسي) بمثابة أثينة افريقيا كما وصف دلفان Delphin في كتابه عن القرويين جامعة فاس بأنها أول مدرسة في الدنيا (ص 12)، وردد (الدكتور رينو) القول بأن مدينة فاس التي جلبت طلبة العالم كانت مهد الحضارة كأثينة تدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب («الطب القديم بالمغرب» ص 77). ولاحظ (دوكاميو) في كتابه «المغرب المعاصر مملكة تنهار» (باريس 1886، ص 12) أن هذه الجامعة كانت ملتقى الأجانب من مختلف الجنسيات والأديان، وآشار (كابريال شارمس) في كتابه («سفارة الى المغرب» ص 254) أن العلوم والفنون كانت تنتشر منها الى أوروبا بل أن كل مدارس فاس كانت أولى مدارس العالم(ص 297) يوم كانت فاس مركز القوة العربية، ورثت مكانة قرطبة والقيروان ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة العربية التي أشع نورها ــ كما يقول أيضا ــ في اسبانيا فأضاء جوانب أوروبا المتوحشة. وقد نهل من معينها جيربر Gerbert الذي اعتلى أريكة البابوية عام 999 م باسم سيلفيستر الثاني.

وقد أكد (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب أبقراط وجالينوس وديوجينوس المعربة. ورأى أن احتواء خزانة القرويين على جملة مؤلفات لأطباء مسلمين دون أخرى يدل على نوعية الدراسات الطبية المنتقاة في القرويين وإن كان الكثير من مخطوطات الجامعة قد ضاع أو نقل الى الأسكوريال في قصة المولى زيدان بن المنصور السعدي، فأبرز الكتب التي كانت على ما يلوح ــ منطلق التعليم الطبي بالقرويين هي :

1) «عمل من طبّ لمن حبّ» لابن الخطيب السلماني (خق أي خزانة القرويين) 607/40، 160 ورقة/خق 40/207/، حبسه السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل (خع أي الخزانة العامة الرباط) 3477 (1) عام 1156 وهو في جزئين يعدد الأمراض من الرأس الى القدم، (الخاصة ببعض الأعضاء مع تعريف لكل مرض وأعراضه وأنواع العلاج). وله أيضا «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» (جزآن، خع، 652 د، 100 ورقة، 1970 د / خق 50 / الخزانة الحسنية 979).

2) شرح أرجوزة ابن سينا (خق 342 / خق 1970، 95 ورقة) الأزهر 475.

3) «تذييل أرجوزة ابن سينا» لمحمد بن زاكور الفاسي (المتوفي عام 1120 هـ/1708 م

4) «الأدوية المفردة» لاحمد أبي جعفر الغافقي (المتوفي عام 560 هـ) جزآن في خق 155/الجزء الأول في خزانة تمكروت.

5) «التيسير في المداواة والتدبير» لابن زهر (خق ق 195).

6) «الأرجوزة في الطب» لابن طفيل (المتوفي بمراكش عام 581 هـ / 1186 م) نسختان في خق 3158 /50 ل /خق ل 40 / 3158.

7)«مختصر في الطب» لابن حبيب صاحب كتاب «الواضحة في السنن والفقه» (المتوفى عام 238 م / 886 م) توجد قطع منه في مكتبة جامعة القرويين.

8) «كتاب الاستقصا والايرام في علاج الجراحات والأورام» لمحمد بن علي الشقرة الفربلياني الطبيب الجراح بمراكش عام 761 هـ (توجد نسخة منه في خزانة القرويين منسوبة لمحمد بن فرح المعروف بالشنفرا في ثلاثة أجزاء).

وقد استمر التعليم الرسمي للطب في جامعة القرويين وباقي مساجد المغرب الى القرن الماضي (رينو ص 77) وقد أشار (دلفان) في كتابه حول جامعة القرويين (الى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل ما ذكرناه بالاضافة الى «زبدة الطّبع» للجرجاني و«التذكرة» للسويدي و«تذكرة الأنطاكي» و«كليات» ابن رشد و«مفردات» ابن البيطار و«كشف الرموز» لابن حمادوش الجزائري (في شرح العقاقير والأعشاب) يحتوي على ألف عشبة مرتبة ألفبائيا.

إلا أن دراسة الطب تهلهلت في الواقع وأصبحت لا تتجاوز المبادىء الصحية العامة والعلاجات التطبيقية بالأعشاب فأصبح بعض الفقهاء والمحدثين يؤلفون في الطب مثل ابن قنفد (المتوفى عام 810 م) صاحب «الأرجوزة في الأغذية والأشربة» (توجد نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط رقم 515) تحتوي على 282 بيتا، وقد انصب التأليف خاصة حول «تذكرة الأنطاكي» التي كان الفقيه أحمد الحضيكي يحفظها عن ظهر قلب كما يحفظ كتاب الزهراوي ويسردها في دروسه للطلبة مع تعليق على شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا وقد صنف الطبيب عبد السلام بن محمد العلمي (المتوفى عام 1323 هـ)كتابه (ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس) (طبع بفاس عام 1318 هـ / 1900 م وكذلك «البدر المنير في علاج البواسير» وانتقد المؤرخ القادري في كتابه «نشر المثاني» (ج 2 ص 123) كتاب «التذكرة» وملاحظا أن الأنطاكي أودعها غثا وسمينا، وكذلك رسالته الأخرى المسماة «النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة» (توجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط) وقد لاحظ القادري أنها أكثر تحريرا وأسلم ايرادا وقد اقتصر البعض على مجرد اختصار «تذكرة» الأنطاكي مثل إبراهيم بن أحمد التادلي (المتوفى عام 1311 هـ) وهي «التذكار لما في التذكرة من الطب مع الاختصار».

وكانت الدراسات الطبية في القرويين تكلل بشاهدة تمنح للطبيب فقد أشار (رينو) في كتابه (ص 121) الى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في ثامن شوال 1310 هـ / 1896 م لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره في الطب وقوانينه ووظائفه وتطبيقاته ومعرفته بتراكيب الأدوية وتقاسيم الشرايين وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها وأسمائها وطرق اذابتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى. وبعد المداولة بين العلماء خولوا الطبيب إجازة Licence وقد حصل على نفس الإجازة في الطب الطبيب الكحاك عام 1832 هـ ففتح دكانا للعلاج بفاس.

غير أن التعليم بدأ يتهلهل بسبب تأزم القضية السياسية وتدخل أوروبا في شؤون المغرب بعد توقيعها على معاهدات سرية عام 1904، فاقتصرت دراسة الطب

على مصنفات عامة كمقالة حفظ الصحة لابن رشد (الأسكوريال 884 / 7) و(تدبير الصحة) لأحمد بن الحسن القضاعي (المتوفى بمراكش عام 598 هـ وأرجوزته في حفظ الصحة). وقد شمل هذا التقلص سائر مساجد المغرب وإن كانت لعبد الكريم بن مومن بن يحيى العلج، وزير المنصور الموحدي. وأنجبت الصحراء أمثال الشيخ ماء العينين (المتوفى عام 1328 هـ / 1910 م) صاحب «شفاء الأنفاس فيما ينفع الأنسان وخصوصا الاضراس» و«منظومة في علم الطب»، وكذلك طبيب تافلالت عبد الله بن هاشم العلوي البلغيثي (المتوفى عام 1304 هـ) الذي درس الطب على عمه بالصحراء وعاد الى فاس ليفتح بها دكان علاج.

وهذا النقص هو الذي حدا المولى الحسن الأول الى ارسال بعثات طلابية الى الشرق أو الغرب حيث تخرج جملة من الأطباء منهم :

شاكر السلاوي الذي درس الطب بأوروبا وفتح دكان علاج بفاس عام 1347 هـ 1928 م («الطب العربي للكانوني»، مخطوط شخصي، ص 121) والشريف عبد السلام العلمي الذي تلقى تعاليمه بالاسبطالية المصرية بالقاهرة وفتح مصحة صغيرة قرب الحرم الإدريسي بفاس حتى، توفي عام 1323 هـ وصنف كتابه «الضياء» حيث وصف بعض الأمراض الباطنية وعلوم التشريح العظمي والعصبي والكيمياء الطبية والمستحضرات الصيدلية وطب الرمد والأمراض الجلدية والداء الزهري وأمراض النساء والأطفال.

وقد تابع في العهد الحسني زيادة على أولئك، ستة أطباء تمارين في المستشفى الاسباني بطنجة ولاحظ (رينو) أن ثلاثة منهم أصبحوا يمارسون في طنجة ومراكش داخل الجيش وقد استفاد الناس من تجاربهم (ص 60).

والواقع أن هذه الدراسة التي توبعت في الجوامع والمساجد والتي اقتصرت أحيانا على شرح بعض الكتب المبسطة للطلبة وجمهور العوام قد ساعدت على ضمان نوع من التوعية للحفاظ على السلامة الجسمية.

نعم إن بساطة العيش والحمية الاضطرارية واللجوء الى الطبيعة وأعشابها هي التي قلصت الأدواء والعاهات والأوبئة وويلاتها وذلك بالرغم عما أصاب العلوم

الطبية والصيدلانية من نكسات بدأت بالغزو الايبيري على المغرب حيث استولى البرتغاليون على سبتة عام 818، ثم قصر المجاز (القصر الصغير) عام 862، وطنجة عام 869، وأصيلا وأنفا في حدود 876، والجديدة عام 907، والعرائش عام 910، ثم أكادير وسواحل السوس وأسفي حوالي 912، وأزمور عام 914، والمعمورة (المهدية) في حدود 920، فطويت هذه العلوم في شمال المغرب على إثر سقوط سبتة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب. وقد ألفت فيها مصنفات في العهد المريني منها (بلغة الامنية وقصد اللبيب في من كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب). وفي الشرق بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية التاسع على إثر هجمات (جنكيزخان) و(تيمورلنك) حتى قال لوكلير (ج 2 ص 258) بأنه يمكن في هذه الفترة تسجيل أكثر من أربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف. وقد أكد (رينو) («الطب القديم بالمغرب» ص 75) أنه لم يذكر أي طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية من عهد المرينيين الى القرن الثامن عشر، وإن كان (ليڤي بروفنصال) قد لاحظ في كتابه «مؤرخوا الشرفاء» نهضة المغرب من الوجهة الأدبية مؤكدا أن من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم الطبية. غير أن وجود بادرات نادرة في هذا الحقل لتبرر في نظري وصف المغرب بالاستمرارية في هذا المجال وقد أشرت في كتابي «الطب والأطباء بالمغرب» (ص 59) الى عشرات من هؤلاء الرجال الذين حاولوا ربط الماضي بالحاضر الموصول حتى ظهر أمثال أبي القاسم الوزير الغساني (المولود عام 960 هـ) صاحب «حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار»، والذى قال عنه (الدكتور رينو) في نشرة معهد الدروس المغربية العليا (ج 18ص 195) إنه كتاب يمتاز بمنهاجه الواضح في الوصف النباتي المتسم غالبا بالأصالة والطرافة مع محاولة جريئة لوصف الأعشاب والمواد الصيدلية بفاس وترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية ومنهم أيضا الطبيب عبد الوهاب أدرّاق طبيب المولى اسماعيل ومحمد بن سعيد المرغيشي المتوفى عام 1089 هـ) والذي كان ينظر في قوارير البول ومحمد العياشي الدكالي صاحب «الجربات الطبية» توفي بمصر عام 1149 هـ (طبعة مصر 1346 هـ). ولكن بالرغم عن انخفاض المستوى الاجتماعي العام فإن الوفيات

كانت قليلة حيث ذكر الحسن الوزان (ليون الافريقي) أن معدل العمر بلغ في مجموع بلاد المغرب ما بين 65 و70 سنة بل يرتفع أحيانا الى 80 ومائة سنة في الأطلس، بينما يبقى في حدود 60 سنة في ليبيا. ومن مظاهر تدهور الصيدلة مثلا أن الصيادلة لم يعودوا قادرين على تركيب الأشربة والأدهان طبقا لما يصفه الأطباء، فكانوا يجتمعون كلهم لتركيبها ثم إرسالها إلى دكاكينهم واستمر الأطباء أنفسهم في مزاولة علاجات تقليدية ضمن طب تطبيقي، لم يكن يخلو أحيانا من جودة (رينو، ص 132) سواء في ميدان التشريح والعمليات الجراحية أو كسر العظام أو معالجة بعض الأمراض بالمغرب كأمراض العيون التي كانت تشكل مع الزهري ثلثي أمراض افريقيا الشمالية مستعملين أنواع التبنيج والإيحاء والتنويم في معالجة المرضى يصفها رينو (ج. / م 240) بأنها لا تختلف عن المناهج المستعملة عند الأوروبيين. على أن الطبيب (بنسيمون) لاحظ في بحث له حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية (مجلة المغرب الطبي، شتنبر 1951) (أن الطب التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع في جدواها، ومنها تخفيف تفجر الحميرة (بوحمرون) والحمى الاستعصاءات باكساء غرفة المريض باللون الأحمر وهي طريقة لا يزال يستعملها الدكتور (شاطينير). :

وقد نقل (ݣودار ج 2 ص 461) ما أكده الحسن الوزان من أن المغرب لم يعرف (الحشيش) وقد حظر الحسن الاول في ظهير شريف استعمال الأفيون والتبغ والكيف رغم ازدهار سوقه حيث بلغت مداخله أواخر القرن الماضي في مراكش وحدها في عام واحد مائة ألف فرنك وفي الصويرة عشرة ءالاف (Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Alger 1902).

ولم يكن المغرب يعرف كثيرا من الأمراض المنتشرة بأوروبا مثل الحمى الوبائية والحمى الحصبية بينما تقل الاصابات الدفتيرية أو التيفويد (رينو ص 140) ولم يظهرالوباء بالمغرب منذ عام 1818، وظهرت الكوليرا لأول مرة عام 1895 (ص 141). وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات ويعمد الناس الى التلقيح بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل أو الناقة. أما الزهري (أو النوار وحب الفرنج) فقد لاحظ الحسن الوزان انتشاره بالمغرب في القرن العاشر الهجري بحيث كان عشر السكان مصابين به وقد نقله المهاجرون اليهود من الأندلس بعد عام 898 هـ

/ 1492 م (كودار ص 261). وكان المخزن يتخذ تدابير وقائية صارمة لمحاربة الأوبئة كما وقع مثلا عام 1865 حيث طردت كل باخرة واردة من الأقطار المنكوبة مثل ايطاليا ومرسيليا وتونس والجزائر. وصدر ظهير للسلطان محمد بن عبد الرحمن في عاشر رجب 1283 هـ (موافق 18 نوفبر 1866) جعل جزيرة الصويرة محجرا صحيا، وعندما ظهر الطاعون عام 1089 هـ بمكناس والقصر الكبير وقف الجند على مشرع سبو وغمره يمنعون التوجه الى فاس ومكناس وباقي مدن المملكة، وقد ظهر بفاس.

فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس («نشر المثاني» ج 2، ص 44) وقد بنيت حول الحواجز الكبرى حارات لفصل الجذمى عن الأصحاء وقد وصفها الدكتور (مارسنيت) في كتابه عن المغرب (عام 1885) حيث لاحظ أن سكانها أصبحوا كلهم أصحاء وتعززت هذه التدابير الوقائية بتوفر سائر مدن المغرب على لجنة صحية من أعيان يهتمون بكل ما يتصل بالصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الأسواق وجلب الماء (رينو ص 36). وكان المخزن يقوم بتطهير بعض الأزقة والشوارع خلال الليل وقد حاول تنظيم نقل الأزبال فجلب من الخارج أول القرن الحالي كناسات ورشاشات ميكانيكية ولكنها لم تستخدم (ص 37). ومن غريب ما يحكى أنه في عام 1760 اقترح بعض الاسبان كنس الطرقات بمدريد من الأزبال التي تغمرها وتدنس المدينة فاحتجت الهيئة الطبية بقوة زاعمة أن أجدادها كانوا رجالاً حكماء وأنهم عاشوا في الأزبال («حضارة العرب» لوبون ص 638 الطبعة الفرنسية). ولعل الأمراض التي تنشأ عن سوء التغذية لم تكن كثيرة الانتشار لأن المغرب لم يعرف المجاعة منذ عام 1614، أي طوال أزيد من ثلاثة قرون سوى ثماني مرات أي مرة كل 35 سنة في حين توالت المجاعة بين سنتي 867 هـ و1325 هـ ست عشرة مرة (رينو، ص 76).

ومن الصعب تقبل مثل هذه الأرقام وإن كان يعززها مانقله (شارل لامارتينير Charles Lamartinière في كتابه La question du Maroc ان المغرب كان يتوفر، حوالي 1859 وهو تاريخ وفاة المولى عبد الرحمن، علي 48 مليون رأس غنم وستة ملايين رأس بقر. وقد أكد ما يقاربه كودار في كتابه المذكور (ج 1 ص 188)، كما يسنده الفائض الضخم الذي مكن المغرب من أن يصدر عام 1845 من ميناء الصويرة وحدها 75 ألف طن من القموح والخضروات، واستمر في ذلك الى

عام **1911** حيث صدر ثلاثة أضعاف ما جلبه من أوروبا. ومع ذلك يجب أن نأخذ كل ذلك بحذر لما يثيره في نفوسنا من شك مثل هذا التعداد الارتجالي الذي حدا أمثال هؤلاء المؤرخين الأجانب الى أن يسجلوا في خصوص سكان المغرب أعداداً تتراوح بين سبعة ملايين وخمسة وعشرين مليون. ويزعم (رينو) أن الطاعون الذي نقله الحجاج إلى المغرب عام **1799** قد حطم كل المحاصيل وأهلك خمسين ألفا من ستين من سكان مراكش وعشرين ألفا من ثلاثين من سكان الرباط، فكيف أن نثق بكل هذا الاحصاء ودولة الحماية نفسها عجزت عام **1950** عن تحديد سكان المغرب كما عجزت عن تحديد ضحايا مجاعة جنوب المغرب عام **1945** وإن كان الرقم التقريبي وصل إلى مليون نسمة.

تلك نظرة مكبرة عن الوضع العام في المغرب طوال ألف عام وعن الدور الذي قام به أطباؤنا بتعاون مع المخزن في مراحل تنظيم تعليم الطب بشتى الوسائل وفي حدود الامكانات التي كان المغرب يتوفر عليها.